

ضاق صدري، وشرعت الأشياء من
حولي تلاحق بعضها في دوران
سريع، ركزت بصري في وجهها
لحظة، قبل أن تنطلق العبارات من
فمي انطلاق الحمم من فوهة بركان
ثائر!

.. ألم أقل لك ليلة البارحة امنعني من
الذهاب عندها؟! يجب أن تعرفي جيداً
أن تحملي لهذه القضية قد تجاوز كل
الحدود، ولقد أن الأوان لكي أواجه
الموقف شخصياً مادمت تعتبرين الأمر
بسيطاً، ولا يستدعي أي معالجة
حاسمة..



الخبلة صفيرة قصة قصيرة

بقلم: عمر فتال
المغرب

تقول لي لها، إنه متعب.. إنه نائم... إنه... ابتسمت،
حركت رأسها ثم قالت: أتقول لي صراحة، اكذبي،
ولا تخافي بعد ذلك لومة لائم؟! دارت عيناها في
محجريهما، وأنا أبحث عن تبرير لما طلبت منها. ولما
عجزت عن ذلك، جلست، دعوتها هي الأخرى إلى
الجلوس، خففت ثأرتي، وحالفني الكلام من جديد:
"اسمعي يا حليلة، ما طلبته منك هو أن تحاولي صرفه
عن الذهاب عندها، بهذه الوسيلة أو تلك.. لأن الزمام
يازوجتي العزيزة، يوشك أن تفلت، وحينها سنقف
مكتوف في الأيدي..

.. بالله عليك ماذا تريد مني أن أفعل مع امرأة في مثل
سن أمي أو أكثر.. امرأة تحب ابننا عثمان، وتدعوه من

ضربت جبيني بعنف وأنا أذرع الحجرة جيئة
وذهاباً.. ولما رانت فترة صمت قالت لي في توسل:
- أرجوك يا مصطفى.. اجلس أولاً وبعد ذلك فكر
بروية في مخرج له..
- لا تفكير ولا تروني لقد نفذ صبري، ولكن الذنب
- لا تفكير ولا تروني لقد نفذ صبري، ولكن الذنب
ليس ذنبه، وإنما ذنبك أنت التي تسمحين له بذلك، لا بل
تأخذه من يده، وتوصلينه راضية طائعة.
قاطعتني وفي صوتها هذه المرة حشيرة: أنق الله،
يا رجل ألم أقل لك مراراً أنها هي التي تطرق الباب في
الوقت المحدد، حتى إنه أصبح ينتظر طرقاتها على أحر
من الجمر.
- حتى ولو طرقت الباب.. أليس في استطاعتك أن

باب الحنان والعطف، ليقضي في صحبتها سويعة، أو ما يقل عنها...

ضربت بجمع يدي على المنضدة، وقد عادت الأشياء من حولي إلى الدوران: " اسمعي يا امرأة فالمسألة ليست دعوة حب وعطف أو غيرها من الترهات التي تتحدثين عنها، فالأمر تفاقم، أسمعنت تفاقم ليسقط ابننا عثمان في.....؟! "

هممت بالاسترسال في كلامي إلا أن رفع أذان صلاة الظهر أوقفني، فاستعدت بالله من الشيطان الرجيم.. استغفرت العلي القدير.. توضأت، وقبل أن أخرج قلت في رقة هذه المرة: " سنواصل الحديث.. مرت قرابة العشرين دقيقة حينما رجعت من رحاب بيت الله.. وجدت أنها قد أدت الصلاة، وراحت تضع الصحون على مائدة الأكل.. جلست، وذهنني يبحث في جدية عن حل لهذه المعضلة التي طرقتنا بدون سابق إنذار.. شرعنا نأكل، فساد الصمت بريهة قبل أن أبدأ الحوار من حيث انتهيت: اسمعي يا حليلة قلت لك قبل الأذان بأن المسألة، ليست أن تدعوه - ذكريني باسمها - أه الخالة صفية، قلت ليست أن تدعوه، وتحبه وتعطف عليه، لا ليس هذا ما يقلق راحتي، بل ما أصبح يفرعني حقاً هو هذا الخوف الشديد الذي أضحي يملك على ابننا نفسه.. ألم تسمعيه بالأمس. وكذا أمس الأول ماذا قال عن الشارع وعن خطره وخطر السيارات والحوادث والدم.. فأعتقد أنك أدري بهذا الخوف الذي يسيطر على مجامع قلبه.. فهل تظنين أن طفلاً يضطرب لسماع صوت شاحنة أو حافلة أو سيارة، وأن طفلاً أصبح يعتبر الشارع نهراً في أوج فيضانه، هل تظنين أن مثل هذا الطفل سيقبل على المدرسة فيما يأتي من الأيام ببهجة وفرح كما يقبل عليها الصغار؟! باختصار إن الخالة صفية يا امرأة قد زرعت في قلب عزيزنا عثمان كل ضروب الهلع والخوف القاتل من خلال ما تحكي له من حكايات.. نظرت إليها فإذا لون وجهها قد تغير، وسرعان ما قالت بصوت هادئ: " وما العمل يا مصطفى؟! "

- هذا ما ينبغي أن تفكري في إيجاد حل له.. لا بل الحل موجود وبسيط، امنعيه من الذهاب عندها حتى ولو انتظرت أمام الباب ساعة من الزمان.. لعلها تعدل عن التعلق به.

امتدت يدها إلى كأس الماء، شربت، وما لبثت أن قالت: " إن هذا ليس حلاً معقولاً ". وضعت الملعقة من يدي، وفي حنق قلت: " وماذا تريد مني أن أفعل؟! "

أنبيع منزلنا، ونرحل من هذا الحي مادامت الخالة صفية وزوجها قد سكنا بجوارنا بصفة نهائية؟! " ابتسمت.. أطرقت لحظة، وأردفت تقول: " لم أقل هذا، ولكن ما أردت قوله هو أن نحسن الخروج من هذا المازق بدون أن نسيء إلى هذه المرأة الطيبة التي لم ألاحظ على تصرفاتها أي شيء مشين، وفضلاً عن ذلك فهي تحب عثمان حب الجدة لحفيدها " ضحكت ملء فمي.. حركت رأسي، وأنا أقول: " حب ممزوج بخوف قاتل من الشارع، من السيارات من الدراجات وربما كل وسائل النقل الأخرى " : امتدت يدي إلى كأس الماء.. شربت ثم التفت نحوها: " اسمعي يا حليلة، إذا كنت عاجزة عن إنقاذ فلذة كبدي، فأنا لن أستمسلم لهذا العجز الذي أخضعك لسلطانه، لذلك فقبل أن أعود إلى العمل سأضع حداً لهذه المشكلة.. سأطرق بابها وأقول لها على مسمع من زوجها من فضلك دعي ابننا يعيش طفولته.. لقد أسأت إلى تربيته.. لقد.. " أوقفتني مستعطفة: " أبلغت بك المساواة إلى هذا الحد؟! "

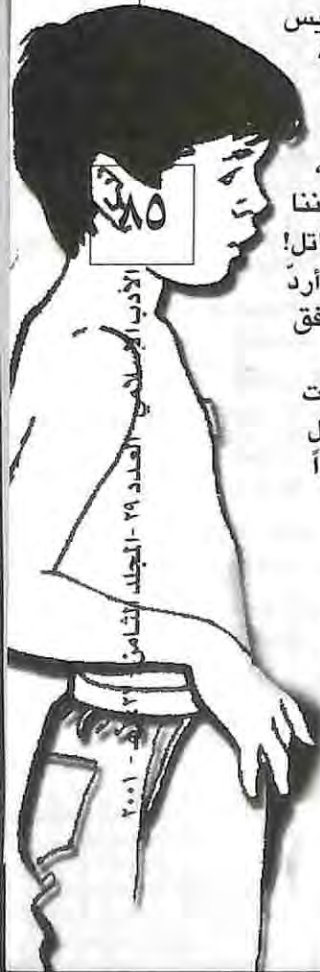
هل تعتبرين تخليصي لابني من إसार هذه الورطة قسوة؟! "

- أن تخلصه نعم، لكن أن تخدش أحاسيس امرأة وعواطفها، امرأة تكن لك ولايتك المحبة والاحترام، فهذا ما لا يقبله إنسان يحب الله ورسوله.

أطرقت برهة، وقد تمردت علي الكلمات، فاسترسلت تقول: " أنا لا أخالفك في كون ابننا يجب أن يتخلص من قبضة هذا الخوف القاتل! ولكن بالتي هي أحسن!! تلعثمت قليلاً قبل أن أرد عليها: " وكيف السبيل إلى الخروج من هذا النفق المعتم؟! "

- كل شيء يمكن أن يتم بسلام إذا تخلصت من قبضة هذا الغضب الذي يلفك، فالأفعال يا عزيزي يعكس صفو التفكير الهادئ.. فهدئ إذاً من روعك.. واسمع الذي أقترح عليك. صرخت: خلصيني. هاتي ما عندك! "

- ألم أقل لك إن الأمور لا تحل بالغضب.. على أي حال ما أقترحه عليك هو أن تحاول الاتصال بزوجة الخالة صفية، وتطلعه بطريقة غير مباشرة على المسألة، وبعد ذلك فهو سيتكفل بالحديث إلى زوجته عوض أن نواجهها نحن فنسيء إلى علاقتنا معها.



ضحكت ملء فمي، وأنا أقول "حسبت أن عينيك وقعتا على شعاع وسط الظلمة التي تكتنف هذا النفق الذي حوصرنا وسطه، فإذا بك، وباقتراحك السخيف تضفين إلى تلك الظلمة قتامة فوق قتامة.. فهل تريدني مني ياعاقلة أن أحدث زوجاً في شأن مسألة تهتم زوجته.. فبالله عليك من يطرق الباب في الصباح والمساء ثم ينادي على عثمان.. الخالة صفية أم زوجها عبد الجبار؟!"

رجتني أن أتوقف. التفت نحوها، وأنا أقول: هذا حل مرفوض أساساً، ولا مجال لمناقشته!"

- دعني أولاً أشرح لك قصدي.. فما أردت قوله هو أن تحدثه في شأن ما أصبح يعاني منه عثمان في هذه الأيام، وهو بالطبع سيطلع زوجته، فإذا كانت حقيقة تحب ابننا، فإنها لا محالة ستعدل عن مثل تلك الحكايات فحاول إذاً أن تحدثه، فإذا تحقق المراد فيها ونعمت، وإلا بحثنا عن حل آخر.. المهم أن نخلص عثمان من قبضة هذا الخوف..

عبثت أصابعي بالشعيرات القريبة من أذني، وتعلقت عيناى بسماء الحجرة لحظة من الزمان.. طال انتظارها لجوابي فقالت: ماردك؟!

انتفضت من مكاني وأنا أقول: "خير البر عاجله"، ساطرق الباب الآن". ابتسمت، اقتربت مني أكثر ثم قالت: "إنك سجين غضب مقيت؟! اسمع يامصطفى لا داعي إلى العجلة، وعليك أن تختار أنسب الظروف لإطلاعه على جلية الأمر لذلك فمن رأيي أن نعرضهما هذا المساء، وبعد ذلك لك متسع من الوقت لكي تحدثه على انفراد، وتخبره بكل التفاصيل.. ساد الصمت.. وبدأت من جديد تتطلع إلى ردي.. طال انتظارها حينما قالت: أنا في انتظار ردك. مررت يدي على جيبتي قبل أن أقول: "اتفقنا، ونتمنى أن تأتي هذه الضيافة بالنتيجة المرجوة.. أعلنت الساعة تمام الثانية والنصف.. هممت بالانصراف إلى العمل عندما طرقت الخالة صفية الباب، فتحت حليلة، فدخل عثمان فرحاً، ضممته إلى صدري، غمرت خديه قبلاً، أوشكت أن أبرح المنزل لما أوقفني قائلاً في كلمات منقطعة: "أبي لا تقترب من الشارع.. السيارات تقتل.. الشاحنات تقتل.. الدراجات تقتل.. نظرت إليه، عبثت أصابعي بشعره الناعم قبل أن تمتد إلى خدي لتمسح دمعتي قفزاً رغماً عني.. في الليل جلست إلى جانب السيد عبد الجبار حدثني عن أيام شبابه.. عن عمله.. عن حياة المتقاعد.. استمعت إليه، وإن كان ذهني قد راح يبحث بهمة لا تفتر عن مقدمة مناسبة للحديث عن

جوهر قضيتنا.. نظرت إلى الساعة أكثر من مرة.. حاولت أن أطرح الموضوع، لكنني كلما تهيأت لذلك رق حديثه، ونفذ إلى أعماقي، وشغلني عن مشكلة ابني.. وفي الوقت الذي أوشكت فيه أن أستسلم لفشلي في إطلاع السيد عبد الجبار على فحوى المسألة، تنامي إلى سمعينا نداء الخالة صفية على عثمان الذي كان يلعب في فناء الدار، فالتفت نحوي، قال: لا يمكنك يا ابني العزيز أن تتصور حب صفية لعثمان، وأصدقك القول، فقد كان لإقامتنا بجواركم كبير الأثر على صحة زوجتي. أردت أن أقاطعه قائلاً: ولكنها ملأت نفسه خوفاً". إلا أن كلامه الهادئ والمتواصل حال بيني وبين ذلك، فرحت أستمع له باهتمام: "تخيل ياعزيزي مصطفى أنه مرت عليها سنوات متلاحقة لم يتخل عنها الحزن والغم، كما أنها لم تكن تبرح المنزل إلا لماماً.. لقد كانت يا ابني صدمة عنيفة تلك التي تعرضنا لها.. كنا وقتها نلعم بالراحة في فترة الظهيرة، حينما دخلت ابنتنا أسماء التي تعيش الآن مع زوجها خارج الوطن، قلت دخلت علينا صحبة أحد أبناء الجيران، وهي تقول بصوت ممزوج بشهيق حاد: "أخي الحسين صدمته سيارة.. كررت الصغيرة العبارة، وهي تلطم خديها، أما ابن الجيران فقد تسمرت قدماء واقتصر على متابعة حركاتها فاغر الفم، دامع العينين.. آه! لقد فجعنا ذلك السائق الأرعن في ابننا الحسين فأحال سنوات من حياتنا سواداً كالحأ!!" حاول أن يواصل حديثه، غير أن الكلمات خانته، وفي بطاء امتدت يده إلى جيبه، أخرج منديلاً، جفف دموعه، مسحت أنا الآخر عيني، قبل أن أقول له بصوت خفيض: "أستغفر الله.. كل من عليها فان.. أستغفر الله، لعن الشيطان.. احتسى جرعة من كأس الشاي الموضوع أمامه، بعدها شرع يسألني عن أحوالي في العمل، فقدم لي نصائح كثيرة.. دعا لي بالخير وأثناء مغادرته لمنزلنا صحبة زوجته الخالة صفية، فوجئت زوجتي حليلة عندما ناديت عثمان، ومالبثت أن قلت له في جدية: "حينما تناديك الخالة صفية فلا تتوان في الذهاب عندها.. أسمعت؟!"

كرت الأيام، وفي أثرها الليلي، كان عثمان خلالها يزور الخالة صفية كل صباح، أما في المساء وبعد عودتي من العمل فيصحبني إلى قلب المدينة فنقطع الشوارع المزدحمة، ونمر أمام السيارات المنتظرة لإشارة المرور، فيحدثني عن الخالة صفية دون أن يلوح في سمائه شيء اسمه الخوف من وسائل النقل....